نص

أحياناً يكون الجواب هنا أمامك

معضلة مظلّة هبوط

الحياة تحت الاحتلال تشبه واقع الفلسطيني المربوط بإسرائيلي في قفزة واحدة حرّة في الفضاء. هناك إسرائيلي على ظهر كل فلسطيني؛ يتحكّم في كل جوانب حياته، وهذا الواقع غير المعقول يضع الشعب الفلسطيني تحت تهديد دائم، وفي حالة رهينة لا نهاية لها

ستيف سابيلا

سابيلا في القدس، بعدسة المصوّر كليمنت شابلت (2016)

حين دخلتُ البيت، سابقتُ الزمن لحزم أمتعتي والوصول إلى «مطار بن غوريون» (مطار اللد).

كنتُ مرهقاً، وأرهبتني ساعات الاستجواب والتحقيق الثلاث من قبل موظفي أمن المطار الإسرائيلي.

- شالوم، ميه إيفو أتا؟ (مرحباً، من أين جئت؟)

قلتُ بلهجة عبرية وأنا أغرغر بحرف الراء في كلمة يوروشليم:

- أنا قادم من القدس.

فتابعتْ:

- من أين تحديداً؟

إن أجبتُ «من القدس الشرقية»، فسيعني هذا أنني عربي، وإن أجبتُ «من القدس الغربية» فسيعني هذا أنني يهودي، وأجبت:

- من المدينة القديمة، شارع أنطونيا.

تفحّصتْ جواز سفري، إلا أن مكاني الأصلي ظلّ غير واضح بالنسبة إليها. سألتني عن اسم والدي:

- إيميل.

- اسم أمّك؟

- إسبيرانس.

- اسم جدّك؟

- أنطون.

- ماهو أصل اسم سابيلا؟

- إيطالي.

- هل تحتفل بالحانوكا؟

- ولم لا؟

- هل تحتفل بعيد الميلاد؟

- بالطبع.

تردّدتُ في السؤال عما إذا كنتُ عربياً، أو عربياً فلسطينياً. ولأجعل الإجراءات تمضي بسرعة أخبرتها أنني جئت من القدس العربية. كل ما أردته هو الصعود إلى الطائرة وإغماض عينيّ.

- ما هو عملك؟

- فنان، وأعمل مصوراً فوتوغرافياً مع الأمم المتحدة.

أبرزتُ لها بطاقتي الصحافية.

- أين كنتَ قبل وصولك إلى المطار؟

لم أستطع إخبارها أنني كنتُ مختطفاً للتو في غزة. ستعتبر هذا تهديداً أمنياً، ومن المؤكد أنها لن تسمح لي بالصعود إلى الطائرة.

- في القدس.

- ولماذا أنت ذاهبٌ إلى سويسرا؟

- لقضاء فترة إجازة مع زوجتي وابنتي. زوجتي سويسرية.

- لماذا تسافر وحيداً؟

- لماذا تعمل مع الأمم المتحدة؟

- هل سافرتَ مع الأمم المتحدة إلى غزة؟

- لماذا تعيش في القدس؟

- لماذا لا تعيش في سويسرا؟

- متى استوطنت عائلتك في القدس؟

- لماذا اسمك ستيف؟

كانت الأسئلة بلا نهاية. واستُبدل حارسُ أمن ثانٍ بالأول، وثالث بالثاني، إلى أن حضرَ رئيس الأمن. وواصلتُ تكرار الحكاية نفسها مرة بعد أخرى. كان عليّ أن أكون متماسكاً، حكايتي متناسقة من دون ارتكاب أي خطأ.

- اسمعوني، هذه هي حكايتي، لن تتغير مهما طال استجوابكم لي.

فإما أن تدعوني أذهب إلى بيتي في القدس، أو تدعوني أصعد إلى الطائرة.

دعونا ننتهي من هذا.

توقفوا عن محاولاتهم، وسمحوا لي بالصعود إلى الطائرة بعد فحص دقيق للحقيبة وتفتيش جسدي بالكامل. رافقوني إلى الطائرة مثل شخصية مهمة جداً، وأخيراً تركوني. وجدتُ مقعدي. جلستُ ومِلْتُ بظهر المقعد إلى الوراء لأغمض عينيّ لأول مرة منذ يومين. إلا أنني في كل مرة كنت أسمع فيها طقة حزام المقعد، كنت أصحو مُجفلاً لأن صوتها كان يشبه سحب أقسام بنادق الخاطفين.

فتحتُ عينيّ القلقتين، وضبطتُ رجلا يراقبني. كان رجلا أسود البشرة. وتخيلتُ للحظة أنه كان الرجل الذي أطلق الخاطفون سراحه في هذا الصباح. حين لاحظ أنني ضبطته فكّ حزام مقعده وجاء إليّ وجلس على مقعد بجانبي. فتح الجريدة وأشار إلى صورة فوتوغرافية أنا فيها...

- هل هذا أنت؟

كانت صورتي مع امرأة تحيط بنا بنادق، مع عنوان بالبنط العريض: «إطلاق سراح عاملين من الأمم المتحدة في غزّة». فانفجرتُ ضاحكاً، وقلت:

بدت الطائرة على الإسفلت كأنها لم تحلّق منذ حرب 1967

عرفتُ أن رحلتي واحدة من رحلات مساءلة الذات والتحرّر

- أحياناً يكون الجواب هنا أمامك.

هناك والطائرة تعلو بنا، رحلتُ عائداً إلى الزمن الذي ذهبتُ فيه إلى القفزة الحرة في الفضاء بالمظلّة في حيفا. وبدت الطائرة على الإسفلت كأنها لم تحلّق منذ حرب 1967، وحين أقلعتْ أصدر محركها ضجيجاً كما لو أنها ستسقط في أية لحظة وهي تهتز بعنف صاعدة في السماء. وعندما حان وقت القفز، فككتُ حزام مقعدي، ووقفتُ مائلاً أنظر عبر الباب المفتوح في مواجهة الريح القوية.

ومن دون أدنى تفكير فعلتها، تاركاً ورائي كل شيء، وقفزتُ طائراً في الفضاء. شعرتُ بالخفّة، أقلّ ثقلاً مما كان يحدث في الأسفل. شعرتُ أنني بلا هوية، حرٌّ من كل الألقاب والتصنيفات، حرٌّ من العنصرية كلها والتمييز، حرٌّ من الاحتلال الإسرائيلي الذي ولدت فيه.

ولكنني لم أفتح مظلة الهبوط، كنتُ في قفزة حرة مربوطاً بإسرائيلي. ولسنوات طويلة أصبحتُ أرى تلك الوضعية في الفضاء استعارة لما يعنيه أن تكون فلسطينياً يعيش تحت احتلال إسرائيلي. الحياة تحت الاحتلال تشبه واقع الفلسطيني المربوط بإسرائيلي في قفزة واحدة حرّة في الفضاء. هناك إسرائيلي على ظهر كل فلسطيني؛ يتحكم في كل جوانب الحياة: الإسرائيلي هو المسيطر دائماً. وهذا الواقع غير المعقول يضع الشعب الفلسطيني تحت تهديد دائم في حالة رهينة لا نهاية لها أبداً.

على الأرض صارعتُ كآبة باعثة على الشلل، وسنة بعد سنة كنت أغوص إلى أعماق جديدة. ولكنني عرفتُ أن رحلتي ستكون واحدة من رحلات مساءلة الذات والتحرّر. وشعرتُ مع سرعة السقوط بحضور فرنشيسكا. وبمرور السنوات خلقنا عالمنا الخاص المبني على مخيلتنا فقط. وهناك وجدنا حريتنا.

(مقدمة كتاب «معضلة مظلة هبوط» للفنان المقدسي ستيف سابيلا الذي يصدر هذه الأيام بالإنكليزيّة عن دار نشر «كيربر» في برلين.

ترجم النص عن الإنجليزية: محمد الأسعد)

مقاومة المخيّلة

يتضمّن كتاب «معضلة مظلّة هبوط» مقاطع سردية من سيرة ستيف سابيلا الذاتية كفنان مفاهيمي ولد في القدس المحتلة عام 1975، وتجربته في مواجهة استعمار المخيّلة، الذي يعتبره اشد قسوة من احتلال الارض. شكّلت علاقة سابيلا بالقدس موضوعا رئيسيا لفنه، عابرا به مراحل مختلفة ومتنقلا بين وسائط متعددة ليصل الى الكتابة اخيرا، بعد ان وضع اسمه بين ابرز ابناء جيله على خارطة الفن في العالم.

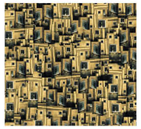

يوميات

وحتى هذا اليوم المعتم

تداعيات حول شرف برشلونة الضائع

الرأسمالية، ذات تفكير استراتيجي مُستلهم من أقدم مهنة في التاريخ. لذا على الواحد أن يعاود المرور في هذا الحيّ، كل ثلاثة شهور، كي يجمع الحُسنيين معاً، ثم يتريّث «بزاف» قبل أن يخرج على القرّاء بهيّاً، متمكّناً من موضوعه

باسم النبريص

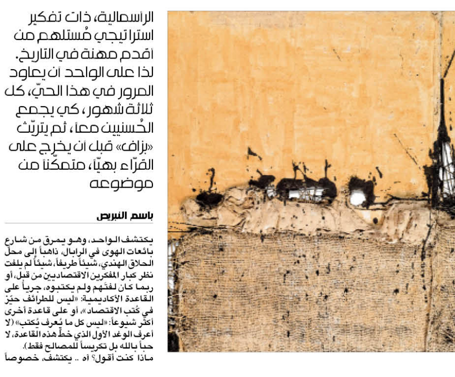
مانولو ميلاريس (1926 - 1972)، وسائط مختلفة على خيش

يكتشف الواحد، وهو يمرق من شارع بائعات الهوى في الرابال، ذاهباً إلى محلّ الحلاق الهندي، شيئاً طريفاً، شيئاً لم يلفت نظر كبار المفكرين الاقتصاديين من قبل، أو ربما كان لفتَهم ولم يكتبوه، جرياً على القاعدة الأكاديمية: «ليس للطرائف حيّز في كُتب الاقتصاد»، أو على قاعدة أخرى أكثر شيوعاً: «ليس كل ما يُعرف يُكتب» (لا أعرف الوغد الأول الذي خطّ هذه القاعدة، لا حباً بالله بل تكريساً للمصالح فقط).

ماذا كنت أقول؟ آه .. يكتشف، خصوصاً وهو راجع من عند الحلاق منتعشاً برشّة الكولونيا وبالسعر المحترم: 4 يوروات (وأحياناً يقبل الرجلُ بـ 3 يوروات وسبعين سنتاً، لو قلت له إن هذا هو كل ما معك. بينما غيره من الحلاقين أبناء البلد لا يقنع بأقل من عشرة ولا يتوقّف عند أربعين)، أن الرأسمالية في طبعتها الأولى أخذت إلهامَها العظيم من جدّات هاته البائعات: عرْض وطلَب. ثم طوّرت، الرأسماليةُ لا المرحومات، من تقنياتها، تحت سُعار أو شِعار «فائض القيمة» المقدّس، فغدت تعدم جزءاً من المعروض، إذا قلّ الطلب، حفاظاً على ثبات السعر. وهذا ما لم تتعلمه هؤلاء الحفيدات المسكينات، منذ بدأت جداتهنّ العمل قبل أن يبزغ نور التاريخ، حتى يوم برشلونة النيسانيّ المعتم هذا. فتراهنّ، وقد قلّ الطلب عليهنّ يلاحقنك على طول الشارع، مُدحرجاتٍ سعر عرضهنّ الضائع من فوق إلى تحت: أي من أربعين يورو إلى عشرة. بل يكدن يتوسلنك القبول، بخمس لغات عالمية لا شائبة في أيٍّ منها . ومنها ولا فخر لغتنا. الرأسمالية، كما يمكن القول إذاً، ذات تفكير استراتيجي مُستلهم من أقدم مهنة في التاريخ. لذا على الواحد أن يعاود المرور في هذا الحيّ، كل ثلاثة شهور، كي يجمع الحُسنيين معاً (يُصلّح شعَره، ويطوّر جنين فكرته الكئيبة)، ثم يتريّث «بزاف» قبل أن يخرج على القرّاء بهيّاً، متمكّناً من موضوعه، حاشداً له كل ما يلزم من مقدمات وحواشٍ ومراجع.

شيء لم يلفت نظر كبار المفكرين الاقتصاديين من قبل

وبعد أن تنال أطروحته درجة الامتياز مع مرتبة القرف، من لجنة مُحكّمين ثقات في جامعة بومبيو فابرا، يُلقيها غير نادم، في أول حاوية زبالة تصادفه على كوربة شارع الرمبلا وهو ماشٍ إلى اليسار.

فالحكاية يا إخوان لا تنقصها أطاريح، لسببين مركزيين: الأزمة الاقتصادية الخانقة التي ناءت بكلكلها على شبابهم، فدفعت غير صاحب أطروحة للعمل على غير مُرجيحة. وخروج الواحد لتوّه من مكان يعجّ بالمطروحات على قارعة الطريق (مثل «الأفكار» عند حبيبنا الجاحظ) جالسات يتشمّسن وينفثن دخان السكائر، أو واقفات يحككن رؤوسهن ويكششن ذباباً معنوياً في وجه الشرطة، مع إزجاء الكثير من زفرات الكربون المؤكسد في الجو. أمرّ عنهن وأحييهن واحدة واحدة، تعاطفاً مع فشل غير المركزيين من أمثالنا في الثأر لأنفسهم، من غرب استعلائي، يحكمه أوليغاركُ الرأسمال.

إطلالة

لنتذكر أنه لم يولد مع الكون

ضوء طازج.. ضوء عتيق

ضوء الشمس الذي نشأ في عهد سومر، أو في زمن الطوفان، أو يوم ولد جلجامش أو توت عنخ أمون، ذلك الضوء لم يصلنا بعد

عبد الهادي السعيد

يسافر الضوء من سطح الشمس إلى كوكبنا في رحلة سريعة ومريحة لا تستغرق أكثر من ثماني دقائق. نفتح أعيننا كل صباح، ونستقبل ضوء النهار بمختلف حواسنا، وبانطباع قارّ بأن ذلك النور طازج حديث المولد. أهو فعلا كذلك؟

الحقيقة أنه قبل أن تسطع على سطح النجم في كل الاتجاهات ويصلنا نصيبنا منها على متن أشعة مكوكية، تولد جزيئات الضوء في باطن الشمس، لتبدأ حينها رحلة أولى للضوء، طويلة وعسيرة، من مركز الشمس إلى سطحها، رحلة زمنها ما بين 10000 و50000 سنة.

إن ضوء الشمس الذي يجبر الضباب لينقشع على الطرقات، يجفف ثياب أفراد العائلة على حبل الغسيل، يجعل حوض الحبق يبتسم في فناء الدار، أو سكينا مشحوذة تلمع في الظهيرة، ينعكس على حرشف سمكة ليدفئ عين صياد وحيد في عرض البحر، ذلك الضوء عمره آلاف السنين. أمّا أحدثه، أكثره معاصرة للإنسان، فعمره على الأقل عشرة آلاف سنة. وهذا يعني، في ما يعنيه، أن ضوء الشمس الذي نشأ في عهد سومر، أو في زمن الطوفان، أو يوم ولد جلجامش أو توت عنخ أمون، ذلك الضوء لم يصلنا بعد. لم نَرَ بعد نور تأسيس روما، ولا فوتونات انتحار كيليوباترة، ولا أشعة موت الحسن الثاني.

يلزمنا تاريخ بشري ثانٍ، الحضارةُ الإنسانية كاملةً، تلزمنا من جديد كلُ الحروب التي خاضتها الشعوب على مدى الأزمنة، حتى نقول ذات صباح رائق، ونحن نتناول فطورنا على سطح مقهى مشمس: هذا الضوء الذي يداعب وجهنا، ولادته من ولادة الزراعة، أو الريّ، أو الهيروغليفية، أو موزار، أو حدائق المنارة...

عتيق إذن ضوءُ الشمس، غير أنّ ثمة حولنا ضوءا أقدمَ منه بكثير، إنه ضوء التشكل الأوليّ للكون، وعمره مليارات السنين.

لنذَكّر بدءا بأن الضوء لم يولد بولادة الكون، بل إنه ظهر بعد نحو 380 ألف سنة من البيغ بونغ. طيلة تلك المدة، لم تكن الجزيئات الضوئية أو الفوتونات غائبة، لكنها ظلت محبوسة داخل فقاعة الكون البدئية، التي كانت تحمل في أحشائها خلطة شبيهة بحساء ساخن جدا لا تقل حرارته عن مليارات الدرجات... البروتونات والإلكترونات كانت أيضا موجودة، ونشاطها في تلك الفترة كان في الواقع سبب تأخر ظهور الضوء، إذ كانت تفرض نوعا من الحجر على الفوتونات، مانعة إياها من مغادرة الفقاعة، كما تمنع يد فظة طائرا صغيرا من التحليق بجناحيه الغضّين... بعد بضع آلاف من السنين، أي بعد لمحة بصر بمقياس كون عمره يربو على 14 مليار سنة - إن صح الحديث طبعا عن البصر في وقت لم يكن الضوء قد نشأ بعد -، بعد تلك الهنيهة إذن، وبفضل انخفاض نسبي كاف لدرجة الحرارة، تمكنت الفوتونات من التخلص من جبروت البروتونات والإلكترونات، إذ انبرت هذه الجزيئات الأخيرة لعمل مشترك أهم: خلق الذرات، بدءا بالهيدروجين والهيليوم... تخيلوا فوتونا سجينا يحرسه إلكترون وبروتون، فلما انشغل سجّاناه عنه بالحديث تمكن من الهرب... لا أدري إن كان محمد برادة يدرك، وهو يختار عنوان روايته المعروفة، أن الضوء في عموميته وفي أصله «هارب». هكذا ظهر الضوء إذن لأول مرة. كان ذلك الانبجاس الأولي عظيما، كان تدفقا هائلا ساح من خلاله الضوء في كل الجهات. المدهش أن ذلك الضوء لا يزال حيا بيننا وسيظل. في كل سنتمتر مكعب حولنا، يوجد ما يقارب 400 جزيئة ضوئية قديمة تقريبا قدم الكون... المدهش أكثر أننا نلتقطه بتلفازنا... إن تلك الحبات الثلجية التي تظهر على شاشات التلفزيون في غياب أي إشارة، 1% منها مصدره ذلك الإشعاع الكوني الأول...

نسمع كثيرا عن تلك النجوم التي يصلنا ضوءها بعد أن تكون هي قد ماتت وشبعت موتا. لنتذكر أن جزءاً من نور النهار يحمل معه، بالمقابل، طفولة الكون، ابتسامته الوضّاءة الأولى...

لنتذكر أن جزءا من نور النهار يحمل معه طفولة الكون

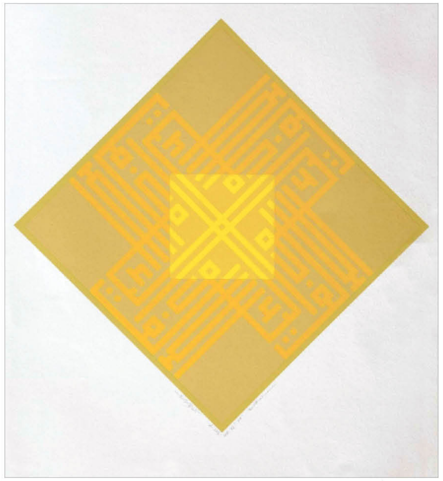
«ألف وياء»، **كمال بُلاطه** (طباعة على حرير، 52×52سم، 1983)

فعاليات

بمشاركة سبعة عروض، تنطلق، غداً الخميس، في **المركز الثقافي** في مدينة كلباء الإماراتية، فعاليات الدورة الخامسة من **مهرجان كلباء للمسرحيات القصيرة**، وتستمرّ حتّى الرابع من الشهر المقبل. على هامش التظاهرة، التي تكرّم المسرحي الإماراتي، **عيسى كايد**، يُنظّم ملتقىً بعنوان «الهواة ومستقبل المسرح الإماراتي».

يفتتح فيلم **الفتاة التي في القطار** (الصورة)، للاميركي تيت تيلور، فعاليات الدورة 16 من **مهرجان بيروت الدولي للسينما** في الخامس من تشرين الاول/ اكتوبر المقبل، على ان تستمرّ حتى الثالث عشر منه، بمشاركة 67 فيلماً تتوزّع بين مسابقتَي **الأفلام الشرق أوسطية القصيرة** و**الشرق أوسطية الوثائقية**، فيما خلت دورة هذا العام من مسابقة **الشرق أوسطية الروائية الطويلة**.

ينطلق، غداً، في **قصر الفنون** في القاهرة معرض متجوّل بعنوان **السرياليون المصريون (1938 ـ 1965)**، ويستمرّ في مواقع اخرى حتى 28 تشرين الاول/ أكتوبر المقبل. يهدف المعرض الى تقديم اعمال فنّية من التيار السريالي المصري ولمحة عن إرثه و تاثيراته في الحركة التشكيلية في البلاد.

في **مركز العين للمؤتمرات**، تستمرّ فعاليات الدورة الثامنة من **معرض العين للكتاب** حتى الثاني من تشرين الاول/ أكتوبر المقبل، بمشاركة قرابة 77 دار نشر محلّية ومؤسّسة معنيّة بصناعة الكتاب. يشمل برنامج التظاهرة تنظيم عدد من الندوات الثقافية والادبية التي يناقش فيها كتّاب وأكاديميون محلّيون قضايا وموضوعات مختلفة.